فانخفضت الاجور وارتفعت الضرائب ، فوصم ايديولوجيو الحرفيين (الشيوخ) السلطان بالعار والترف والفساد ودعوا الى التمسك بآداب التقشف والاحتفاظ بالفضائل القديمة وبأدوات الانتاج القديمة . كما حدثت عام ١٨٢٥ انتفاضات في القدس وبيت لحم ونابلس ، اذ رفض السكان دفع الضرائب . واندلعت عام ١٨٣٠ انتفاضة اخرى في نابلس ، وقد سهلت هذه التمردات والانتفاضات العفوية ، مضافا اليها السخط السائد ، عمل قوات محمد علي التي اقتحمت حدود سورية وفلسطين عام ١٨٣١ بترحيب من السكان . يلاحظ لوتسكي ان سورية وفلسطين كانت محط مطامح محمد علي « اذ لم يكن من المستطاع تحقيق خططه لتشكيل دولة عربية كبيرة دون حيازته على هذين البلدين اللذين صانا مصر من الهجوم من الشرق ووقفا كحاجز ضد الخطر التركي » . وقد اتخذ محمد علي كذريعة لتحقيق مطامحه ، هرب ستة آلاف فلاح مصري من التجنيد ، ولجوءهم الى حماية والي عكا ، فبدأ محمد علي عملياته الحربية ضد والي عكا فقط وجهز حملته التي كانت اعلانا عن تمرده على السلطان العثماني ، فقد أدت هذه الحملة الى نشوب حرب تركية مصرية كبيرة انتهت بابرام معاهدة صلح كان من نتائجها ان عين محمد علي حاكما على فلسطين وسورية وكيليكيا . ويتطرق لوتسكي الى اصلاحات ابراهيم (ابن محمد علي) في سورية وفلسطين ، فيرى ان ابراهيم قد سعى في فلسطين ، كما في سورية ، الى القضاء على الاتفصالية الاقطاعية والى تحديد الحقوق السياسية التي يتمتع بها الولاة الاقطاعيون المنفردون ، واستعاض عن السادة الاقطاعيين غير المطيعين الى السلطة المركزية بآخرين يخضعون له كلية . وهكذا اعتمد ابراهيم في كفاحه ضد الاقطاعيين العصاة في منطقة نابلس على شيوخ عبد الهادي وخاض بمساعدتهم نضاله ضد الشيوخ الاخرين . وقام ابراهيم باصلاحات ادارية وقضائية وتعليمية هامة .

ويتحدث لوتسكي عن الاستياء والانتفاضات التي قامت في وجه ابراهيم في فلسطين وسورية فيلاحظ ان على الرغم « ان اصلاحات ابراهيم كانت قد ضمنت نمو القوى المنتجة بدرجة ما وحسنت وضع التجار والحرفيين والفلاحين الا انها اثارت استياء خطيرا في سورية » . ففي فلسطين قامت أول انتفاضة فلاحية كبيرة ضد التجنيد شملت فلسطين كلها تقريبا وكان ذلك عام ١٨٣٤ . وقد ابيدت الحملة المصرية التي أرسلت لتنكل بالفلاحين ، وحاصر الثوار ابراهيم نفسه في القدس وجاءت لمعونته امدادات عسكرية مصرية كان على رأسها محمد علي لقمع الانتفاضة . وقد تتابعت على اثر ذلك الانتفاضات في سورية ولبنان وظهرت خلافات جديدة بين محمد علي والباب العالي مهدت لتدخل الدول الكبرى وظهور ما يسمى بـ « المسألة الشرقية » ، اذ انفتح الباب على مصراعيه امام الدول الكبرى وخاصة الانجليز ، وازداد تغلغل الرأسمال الاجنبي ، وهكذا اعتبر هذا العهد فاتحة للاستعمار الاوروبي للبلدان العربية وعهد تبعيتها اقتصاديا .

ويرى لوتسكي ان نشاط الارساليات الدينية كان طريقا آخر من طرق التغلغل الاجنبي في الشرق العربي ، حيث فتح المبشرون المدارس والمؤسسات في سوريه وفلسطين . وكانت هذه المؤسسات تدار من قبل الفاتيكان وتحظى باسناد فعال من قبل فرنسا . وفي عام ١٨٤٦ بعث البابا نظام بطريكية القدس اللاتينية الذي كان قائما في وقت من الاوقات في عهد الصليبيين . وفي عام ١٨٤٩ أنشأت روسيا في القدس ارسالية دينية روسية لتعزيز نفوذها بين السكان الارثوذكس من شبه جزيرة البلقان . اما انكلترا فقد أقدمت على مخاطرتين في آن واحد . اذ ساندت البروتستانت وخطط المستعمرين الالمان في فلسطين ، وانشأت في القدس اسقفية انكليزية — بروسية (١٨٤١) . ومن جهة اخرى شجعت خطط الاستعمار اليهودي وبدأت تلهم مختلف انواع المشاريع الصهيونية . ويقول لوتسكي « وفي منتصف القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود ضئيلا جدا في فلسطين ، ولا يكاد يبلغ ١١ ألف نسمة . وكان الكثيرون منهم زوارا نزحوا الى هناك لاغراض دينية . وفيما يتعلق بالازمة الشرقية (١٨٣٩ — ١٨٤١) فان الانجليز اخرجوا من محفوظاتهم خطط نابليون بشأن انشاء دولة يهودية في فلسطين . وفي عام ١٨٣٨ قدم اللورد شافتسبري ، وبعده القنصل البريطاني في القدس جيمس فن ، جملة من المشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها تحت الحماية البريطانية . فحظيت هذه الخطط بعطف من قبل بالمرستون ، الذي رأى فيها ضمانا لامن مواصلات الامبراطورية ، كما لقيت سندا من قبل مونتفيوري ، الصيرفي اليهودي — الانجليزي الذي يمت بصلة قربى الى اسرة